

القيم الإنسانية في الإسلام وحاجة المجتمع إليها في عصر التحدي

د. دلاسي أحمد

أستاذ علم الاجتماع / جامعة الاغواط

delassim@yahoo.com

التمهيد :

قبل التطرق إلى موضوع القيم وأبعادها الإنسانية والاجتماعية على حياة الأفراد والجماعات لاسيما أهميتها في الإسلام يجدرني في هذا المقام أن ابدأ بتحديد المكانة المميزة لنطاق المجتمع والقيمة الروحية التي وهبها له إياها الإسلام الخفيف . فالمجتمع هو ذلك الإطار العام التي تتحدد بداخله العلاقات بين الأفراد وتبرز مكانتهم الاجتماعية ضمن نطاقه في هيئة وحدات أو ما يتفق على تسميته بالجماعات الاجتماعية⁽¹⁾ ولذلك مهما تنوعت التعريفات وتعددت حول مفهوم المجتمع إلا أن مفهومه من حيث الاصطلاح ينطبق على أي مجتمع أنساني مهما كانت عقيدته أو جنسيته أو لونه أو غير ذلك من الصفات التي تحملها التعارف في تحديد المجتمعات ليبقى المجتمع عبارة عن مجموعة من الأفراد يعيشون على رقعة جغرافية معينة محددة من الناحية السياسية و معترف بها من طرف الآخرين ول هؤلاء الأفراد مجموعة من العادات والتقاليد والقيم والأهداف العامة المتبادلة فيما بينهم في بينهم أساسها الدين واللغة والتاريخ . فعلى هذا الأساس تنشأ الوحدة الاجتماعية وتشكل العلاقات القوية بين أفراد المجتمع نتيجة التفاعل الاجتماعي الذي تحدثه هذه المعايير والقيم المتعارف عليها.

شروط بناء المجتمع :

لا ينبغي أن نتصور بان تشكيل المجتمع وحالة بنائه تتم عن طريق الصدفة أو نتيجة عوامل وهمية بل اشترط المختصون في ميدان علم الاجتماع أن هنالك جملة من الشروط مهما توفرت تساعد على إقرار المجتمع وبنائه اجتماعيا , ومن أهم هذه الشروط :

أولا المكان : وهي الأرض المحددة بمساحتها والتي تمكن لهم العيش فيها حسب طبيعتهم وطبيعة البيئة الخاصة بها لكي تتحدد الشخصية وفق الظروف الطبيعية والاجتماعية.

ثانيا الزمان : المدلول اللفظي للزمان يتغير حسب طبيعة الاستعمال فالزمن والزمان اسم لقليل الوقت وكثيره وقد نستعمل الزمن والزمان للعصر . ولذلك قديما يقال أزم الشيء طال عليه الزمان وأيضا أزم بالمكان أي أقام به زمانا⁽²⁾ ولما تشترط الإقامة في مكان زمانا طويلا تنبت الشروط التي تساعد على البقاء ولذلك يشترط على أعضاء المجتمع العيش معا فترة طويلا لكي يتم الانسجام والتفاعل والتضامن وكل آليات البناء الاجتماعي.

ثالثا الوحدة : ولا يمكن أن تكون هذه الوحدة إلا في نطاق العلاقات الاجتماعية بين أفراد الجماعات الاجتماعية لان ذلك يجعل الشعور بالوحدة بين الأعضاء ممكنا . ولا تتم هذه الوحدة إلا في إطار القوانين الربانية والنظم الطبيعية والأعراف الإنسانية.

وانطلاقا من الشروط الأساسية التي اشرنا إليها تتحد إلينا نحن هوية المجتمع الإسلامي كأحسن نموذج عن البناء الاجتماعي أو بصفة أدق صورة المجتمع المحدد بشروطه وأركانه . فهو ذاك المجتمع الذي يتميز عن باقي المجتمعات

الأخرى. مكانه وزمانه ووحدته كان نقول المجتمع الذي يقطن بشبه الجزيرة العربية أو حالة المجتمع الإسلامي منذ نزول الوحي أو الشعور الاجتماعي بالوحدة نحو ما أمر به الله ونهى عنه في القرآن الكريم وعلى هذا الأساس تشترط آليات الوجود الاجتماعي بنظمه الخاصة وقوانينه العقائدية ولنا في ذلك نحن أمة الإسلام قانون القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وسوف نتطرق فيما بعد إلى نشأة الأركان الخاصة بالمجتمع الإسلامي منذ نزول القرآن ومنبع السنة المحمدية الشريفة : فانكب المجتمع المسلم منذ ذلك التاريخ حول عقيدة واحدة واشتركوا في وحدة قوية اتجهوا بها نحو قبله واحدة ولو أن ذلك يتكون من أقوام متعددة والسنة متباينة إلا أن المجتمع بقي بحاجة ماسة وملموسة تتمثل في الخصائص المشتركة والأعراف العامة والعادات الموحدة وجملة القيم الإنسانية التي تنمي طاقة المجتمع وتبعث به إلى الرقي والازدهار .

القيم الإنسانية من حيث المصدر والاتجاه :

تتكون القيم الإنسانية من مجمل الأساليب الحياتية التي يتقيد بها الإنسان نحو مجتمعه وتشمل المكونات المتداخلة إذ تتمثل في الرموز والأخلاق والمعتقدات والمفاهيم والأمثال والمعايير والتقاليد والعادات والأعراف والوسائل والمهارات التي يستعملها الإنسان في تعامله مع بيئته الطبيعية والاجتماعية أو بصورة أدق كل ما يجعل التفاهم ممكناً في أحوال المعاش كما يمكن أن يقال باللغة التي حلل بها ابن خلدون قضايا وأحوال العمران البشري. فعلى أساس القيم تبني المعاملات والتصرفات في الحياة اليومية وتشكل مع الثقافة العامة للمجتمع . ونظراً لأهمية الثقافة في حياة الشعوب والأمم والمجتمعات فإننا نصنف ذلك حسب الثقافات إما راقية وإما متخلفة وإما تابعة فلكل مجتمع ثقافته مهما كانت درجة حضارته أو درجة تقدمه ونوعية علاقته بواقعه⁽³⁾. إلا أنها تتنوع بتنوع المجتمعات. ومن أهم خصائص هذه المكونات والأساليب الحياتية المتمثلة في القيم الإنسانية فإنها تنتقل من جيل إلى جيل ومن مجتمع إلى آخر عن طريق اللغة والوسائل والرموز التي هي من صميم ما يميز الإنسان والمجتمع الإنساني عن بقية الأنواع الأخرى من المخلوقات. وإذا عدنا إلى جوهر القيم الإنسانية التي نحن بصدد الحديث عليها في هذا الموضوع فإن من أهم مميزاتا أنها تنظم علاقات الناس فيما بينهم من جهة وبينهم وبين أنفسهم من جهة ثانية وبينهم وبين النظام العام والمؤسسات والمحيط من جهة أخرى ولذلك تظل القيم بمثابة المعتقدات المقدسة حول الأمور والغايات وكل أشكال السلوك المفضلة لدى أفراد المجتمع الواحد . فهي التي تعمل على توجيه الأفكار والممارسات والمشاعر والتصرفات وكذا الاختيارات فنحن إذ نتمسك ببقينا فمعنى ذلك إننا نحافظ على مبادئنا العامة التي من خلالها نحقق بها وجودنا ويتمثل لنا ذلك في قيمة العدالة والإخلاص والرفاهية واحترام الآخرين ومبدأ المساواة وما إلى ذلك أما إذا عدنا إلى مصدر القيم واتجاهاتها فإننا نستخلص من ارتباطها العضوي بالبيئة الطبيعية والاجتماعية المتوارثة منذ نشأة الحياة الاجتماعية في حد ذاتها وتوارثتها الأجيال المتعاقبة على الحضارات الإنسانية ولنا أن نستدل ببعض النماذج المتدالة على هذه النشأة للقيم وأهم المصادر التي برزت منها.

فلقد أشار ابن خلدون إلى مدلول العصبية عند الشعوب والقبائل وربط هذا المدلول بتفاعل مجتمعات البدو أكثر من غيرهم مع بيئتهم للطبيعة⁽⁴⁾ مما يولد عند هؤلاء نزعة اجتماعية لها علاقة وطيدة بطبيعة الصحراء التي يتمتعون إليها فتجلت مع مرور التاريخ قيم إنسانية متفاوتة حدتها عن غيرها لدى السكان في الحضر أو نصنف الحضر يستطيع الدارس في العلوم الإنسانية والاجتماعية أن يجللها من جانب يتعلق بقيم التضامن والتماسك الاجتماعي بين الأفراد كالاتخاذ والأخذ بالثأر والشرف واحترام الأهل فهي جملة من المبادئ العامة ترتبط بالبيئة الطبيعية وتولدت من خصائصها هذا بالإضافة إلى قيم إنسانية أخرى نشأت من الحياة البدوية قديماً كما هو الحال بالنسبة لقيم القروسية

والشجاعة والصبر والكرم وهي أساليب تسبب إلى يومنا هذا لسكان البادية والصحاري أكثر من غيرها . ونفس الحال بالنسبة للقيم الدينية والرموز الحسية التي عبرت عنها الطقوس البدائية المستوحاة من الحيوانات والكواكب والأحجار الكريمة مما صورت للبشر قديما معاني الرحمة والبركة والنذر والتحذرها فيما بعد معظم المجتمعات كقيم عقائدية يعود أصلها واتجاهها إلى البيئة الطبيعية . وغني عن البيان أن العائلة باعتبارها الخلية الأساسية في المجتمع وجدت نفسها منذ فجر التاريخ من بين أهم مصادر القيم الإنسانية والاجتماعية خاصة أنها تشكل في حياة العرب منذ ذلك الوقت ولا زالت إلى يومنا هذا تحت على التعاون وقيم التسامح والالتزام بين أعضاء المجتمع لكي يتم توحيد الهوية وتبرز أركان القيم مثلما هو الحال في بعض القيم التي لا يمكن الاستهانة بها كالعار والشرف والأفراح والأقراح من خلال ما سبق يتضح وكان شروط نشأة المجتمع وعوامل تطوره متكاملة بين الشروط التي ساعدت على اكتشاف مصادر القيم واتجاهاتها لان كلاهما يخضع إلى عوامل طبيعية وأخرى اجتماعية مثل الأرض والزمان والمكان والأفراد والعلاقات ولذلك فان المحافظة على القيم يعني بالدرجة الأولى المحافظة على هوية المجتمع وأركانه.

حاجة الأفراد للقيم :

من المعروف جدا أن حاجات أفراد المجتمع متنوعة ولا متناهية، فمنها الحاجة إلى الأكل والشرب حتى يتمكن الفرد من الجيش ومنها الحاجة إلى العيش كي يبقى النوع الإنساني وحاجة إثبات الوجود لكي يبقى ذكره والاعتراف به سواء على المستوى المحلي أو المستوى العالمي من ناحية أخرى يجب الإشارة أيضا إلى ضرورة التعاون والمشاركة الجماعية لان حياة الفرد اجتماعية بطبعها فلا يمكن لأي كان أن يحقق حاجاته الضرورية بمنعزل عن الآخرين فنظام الحاجات وسبل تحقيقها تخضع إلى منظومة متكاملة من الجهودات فتتجلى صور التعاون والتضامن والتآزر والعناية وهي كلها قيم إنسانية معنوية لكنها ضرورية وإلزامية لكي نستغل القيم المادية , وهنا يكمن التكامل والارتباط الوظيفي والعضوي بين الفرد والمجتمع من ناحية وبين التفاعل والانسجام الاجتماعي من ناحية أخرى .

ولما كانت هذه الإلزامية للقيم ضرورة وجودها تطلب الأمر من الأفراد مراعاتها والحفاظ عليها وحمايتها من الضياع لان ذلك كما سبق وان اشرنا يعتبر استمرارا لحياة المجتمع والمجتمع لا يمكن أن يحيا ويعيش بدون أفراد فاعلين ومحافظين على العناصر التي تعطي للمجتمع حيويته ونشاطه .

فالنظام القيمي الذي يمثل أهم مقومات المجتمع الإنساني يمثل الدعامة المتينة لحفظ الأركان الداخلية للمجتمع بالدرجة الأولى ولأعضاء المجتمع بالدرجة الثانية ومن خلال هذه الملاحظة على الأركان يستطيع الأفراد إعطاء المفهوم الحقيقي للإنسانية، لا سيما ونحن في عصر العولمة القائم على التفوق الجنسي والعقائدي ولا مكانة فيه للضعيف بثقافته واتجاهاته وقيمه. بل أن الرهان المفروض في اتساع العولمة قائم على التفوق القيمي حتى أصبحنا نراهن على الصراع الحضاري والثقافي .

فالعلم اليوم قائم على السباق الثقافي بمعتقداته وتصورات وقيمه، و لو أن الصورة المسيطرة تتجلى في التجارة والاقتصاد والسياسة، لكن سبق وان وضحنا بأنه لا يمكن فصل مادة الفعل عن روحه أو معنوياته . وبالضرورة أن الذي يتطلع إلى دور حضاري راقى عليه أن يعد العدة لذلك من كل الجوانب المادية والمعنوية والشخصية والمجتمع كلاهما يخضعان إلى نفس القانون وان ثقافة العولمة تركز على الاتصالات العالمية بين الأقوياء والضعفاء ولو أنني أتخفظ لهذا التشبيه والهدف من وراء ذلك توحيد القيم والمعايير الثقافية في كل أرجاء المعمورة وتوحيد هذه الثقافة أو بالأحرى القيم والمعايير على غط الثقافة الغربية وشيان بين هذا وذاك لان الأمر يتعلق بالعقيدة والعادات والتقاليد واللغة والتاريخ، أو كما صرح الاستعمال فما سبق بالنظام القيمي الخاص بكل مجتمع.

المنهج القويم للقيم الإسلامية :

غني عن البيان أن المجتمع الإسلامي بقوانينه وأعرافه ومعتقداته جعلت منه مجتمعاً يتميز عن غيره من المجتمعات الأخرى بنظمها الخاصة لأن المجتمع المسلم مقيد بقوانين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وإن أفرادَه يشتركون في عقيدة واحدة وهي عقيدة الإسلام. فمنهجها وقيمتها السمحاء تتجلى في القبلية الواحدة التي يتجهون إليها عند صلاتهم ولذلك يشتركون أيضاً في نفس الخصائص والأعراف والعادات الموحدة .

تلك هي صفة المجتمع المسلم الذي عرفه أحدهم بأنه : " خلائق مسلمون في أرضهم مستقرون تجمعهم رابطة الإسلام وتدار أمورهم في ضوء تشريعات إسلامية وأحكام ويرعى شؤونهم ولاية أمر منهم وحكماء⁽⁵⁾ " فليس الحال هنا لدور العادات أو التقاليد أو اللغة أو العنصر في تشكيل المجتمع الإسلامي بل الأكثر من ذلك أنه مجتمع يقبل كل من آمن بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، فالصفات الأساسية التي نستخلصها لهذا المجتمع هي أنه مجتمع رباني تحدت أهدافه ورسمت ملامحه من نصوص الشريعة الإسلامية وإحكامها ونظمها ، فلا يخفى على أحد أن الإسلام دين شامل فعلا لا قولاً فهو يستغرق الحياة كلها بمعنى الاستسلام للخالق الواحد والانقياد له ظاهراً وباطناً لان الشهود لله بالربوبية معناه وضع النفس اللوامة دوماً تحت الرقابة الربانية والمدرَك لذلك يستحي من الله عز وجل أن يفعل شيئاً يفضب الله أو لا يرضيه. والحياة في هذه الحالة من الإيمان وهو قيمة إنسانية من قيم الإسلام الحنيف تعود البشر على منهج قويم تتجلى من خلاله صور الحياة من الله وبما خلق الله . بل إن حتى البشر يقدم أمامه باستحياء واحترام.

وقد ضرب لنا القرآن الكريم أمثالا وعبرا في اختيار المنهج الرباني إذ وجب علينا احترام بنوده والالتزام بقواعده مساوياً بين كل البشر بلا تمييز عرقي في العرقية أو القومية أو اللون أو الجهوية والقبلية⁽⁶⁾ بحيث ساوى بين الناس انطلاقاً من مبدأ احترام الغير وفي ذلك يقول المولى عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣﴾ الحجرات: ١٣

إن تربية أفراد المجتمع الإسلامي على المنهج القويم المتمثل في الخلق الرباني هو أساس صلاح المجتمع وبناء مقوماته وهو حال الأمم والأقوام العابرة وورثت لنا العلم والإيمان والأخلاق الفاضلة كقيم إسلامية وهي نعمة من نعم الله التي لا تحصى ولا تعد فضائلها كبيرة وهدايتها كثيرة ولهذا فإن إعلاء القيم الحققة ووجوب العمل بها اليوم بل الأكثر من ذلك تفديسها لأنها مقدسة بمصدرها ألا وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فهو واجب علينا أن نعمل بها وإن يسود المنهج الذي بنيت عليه وأهم ركن في ذلك هو الفهم الصحيح الذي يأتي عن طريق المزوجة بين العقل والنقل أو بصورة أهم بين صحيح المنقول وصريح المدلول لكي لا يحدث التضارب والتناقض والاغتراب النفسي واعتقد كثيراً أن الذي هو حاصل اليوم عند شبابنا خاصة وعامة الناس هو ذلك الفهم الخاطئ أو التضارب وهو ما جعلنا نحكم عن الفساد باختلال الخلقي والتشوهات في التعامل إذ مردها أساساً إلى شيء واحد وهو السلوك الناتج عن أزمة قيم (crise de valeurs) .

إن مثل هذه المشاكل يصعب في كثير من الأحيان معالجتها والسبب في ذلك يعود أساساً إلى صعوبة الفهم في المسببات وليست الأسباب ولذلك تاهت النفوس وتشتت القيم وتعددت الأساليب وتنوعت الاقتراحات دون أن توطر للقيم الأصلية وتدعوا لها كما يكون عليه الحال فكهم من قيمة إنسانية أصيلة تعلمها الأطفال في الأسرة والمدارس والمعاهد والجامعات كنظريات ولم يجودوا لها حظاً من التطبيق الفعلي والعملي . ويصدق الحال هنا أن تستدل بالحكمة العربية قولاً وفعلاً :

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فسوق ظهورها محمول.

إن هذا الواقع يجعلني في كثير من الأحيان أضع ملاحظاتي على علة الشيء فمعظم المجتمعات العربية الإسلامية تعيش هذا النوع من التناقض بين الجسد والمزلة فهي تعاني حقا أمراضا سلوكية ناجمة بالدرجة الأولى عن إحلال قيمتي أي قيمة محل قيمة فالعامل في المؤسسة لا يبالى بالهدر والتبديد والضياع ولو أن الآية صريحة فقد وصف القرآن الكريم المبذرين بإخوان الشياطين والطالب في الجامعة رغم درجة علمه تراه أحيانا يقبل على الغش ولو كان يعرف أن الحديث الشريف صحيح في مثل قوله صلى الله عليه وسلم "من غشنا ليس منا" والطفل الصغير بدافع من أحد الوالدين يقدم على الكذب عند قولهم له قل لمن بالباب لست هنا أو هو نائم (كما قال الإمام محمد عبده)، وهو سلوك سالب يخرج المؤمن بالكلية من الإيمان كما جاء على لسان الصادق الصدوق عليه أفضل الصلاة وأزكى وأتم التسليم في الحديث الشريف فلست أبلغ هنا إن قلت بأن القيم الإسلامية في كثير من المواقف تجد نفسها تحل محل قيم سلبية أو متعارضة لكن الأدهى والأمر في عصر التحدي ظهر ما يمكن فهمه واستيعابه عن القيم العابرة أو القيم الوافدة أو القيم المتقدمة التي تحل محل القيم المتأصلة ولذلك اختل النظام القيمي مما عرض المجتمع برمته إلى خطر الانحيار الأخلاقي والتشوّهات السلوكية التي مست الفرد والمجتمع يصعب في كثير من الأحيان معالجته لبعض الآفات التي تصدر وهي متداخلة الأبعاد والمضامين.

الخلاصة :

من باب المقارنة فقط بيننا وبين أقوام وأمم سالفة التي نسميها بالسلف الصالح، لأن أفعالها وأقوالها كانت مطابقة لما ينبغي أن يكون عليه حال التربة المجتمعية فنجد الفارق شاسعا في قواعد المنهج القويم المثبوت. بالقيم الإسلامية والمستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة وهو المنهج العام الذي أراد الله تعالى أن تبني عليه الحياة الفاضلة والعيش الكريم والسعادة الأبدية لكنني أرى مرارة الأشياء أكثر عندما نتكلم باسم الحداثة، والعنصرية والرفاهية والتقدم وكل أنواع البهاء التي تقارن بما أنفشنا مع غيرة من المجتمعات الغربية والتي عادة ما نرميها بكل أنواع الشرور فعندما يكون الأمر متعلقا بالقيم الإنسانية، فإننا نجد حجم الفارق في التطبيق والمعاملة لصالح هؤلاء بكثرة فهل يقبل الغربي في عادة استعمال الكذب والإقبال على السرقة بل يراها من أمهات الكبائر ولا ينبغي بأي حال من الأحوال التسامح مع من ارتكب هذه الجريمة وهي الحقيقة التي عرفتتها شخصيا من الفرنسيين الذين بقوا في الجزائر بعد الاستقلال مباشرة وكانوا يمارسون علينا التعليم بغاية التحضير فعودونا دوما على تجنب مثل هذه السلوكات الشاذة مهما بلغت قيمة الحياة وصدق المصلح والعلامة الجزائري الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عندما قال "إبليس يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر".

فالواقع المعيش أوحى لنا بأننا أدركنا نوعا ما أهمية الالتزام بقيمنا الإنسانية والاجتماعية المنبثقة من أصالتنا ومبادئنا السمحاء، وفقا للمعطيات المتاحة ولكي يتسنى لنا تحقيق التكامل والانسجام في الحياة بين أفراد المجتمع يجب علينا أن لا نغفل جانب الالتزام بالعمل والتطبيق والله لا يضيع أجر المحسنين.

الهوامش :

1. مصطفى الخشاب : دراسة المجتمع - مكتبة الانجلو المصرية القاهرة 1987. ص7
2. أبي منصور الهروي : تهذيب اللغة - تحقيق أبي عمر و عماد زكي الباروي المكتبة التوفيقية مصر. بدون تاريخ.
3. حلیم بركات : المجتمع العربي المعاصر - مركز دراسات الوحدة العربية الطبعة الأولى أبريل 1983 بيروت ص 325 .
4. عزيز العظمة- ابن خلدون وتاريخيته دار الحداثة 1983-ص38.
5. لحسن عبد الغني أبو غدة وآخرون : الإسلام وبناء المجتمع الإسلامي مكتبة الرشد الطبعة الثانية 2006 الرياض ص14.
6. زكريا بشير إمام : مكارم الأخلاق عند العرب قبل الإسلام - شركة مطابع السودان للعملة المحدودة - الطبعة الثانية الخرطوم 2011ص225.